مفهوم المستقبل من أجل فلسفة للمستقبل(*)

د. بهاء درويش(**)

ملخص

لا أحسب أمة في حاجة الآن للمشاركة في تحديد وصياغة مفهوم للمستقبل مثل أمتنا العربية. فالفلسفة متداخلة متعددة الثقافات هي تلك التي تناقش مشكلات عالمية ولكن من منظورات مختلفة، انطلاقًا من ثقافتها. أمتنا العربية في حاجة لمستقبل تصحو به أو تتقدم معه. كيف لهذا المستقبل أن يتحقق ما لم تكن هناك صياغة فلسفية لهذا التصور تنتشر بين جموع الشعب حتى تصبح دستورًا لهم يعملون من أجل تحقيقها وتحقيقه.

Abstract

I do not think there is a nation that needs to participate in designating and formulating a concept for future like our Arab Nation. Intercultural philosophy is that kind of philosophy that discusses international issues but from different perspectives; that is from different cultures. Our Arab nation is in need of a future with which it can develop or go forward. How can it achieve such future unless it presents a philosophical formulation of such a concept that can spread among all people until it becomes a constitution with which they can achieve it and achieve the constitution as well.

(*) مقال تم إلقاؤه في الجلسة الافتتاحية في مؤتمر الجمعية الفلسفية المصرية الحادي والثلاثين ١١ ديسمبر ٢٠٢١.

(**) أستاذ مساعد الفلسفة اليونانية بقسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - مصر.

ما المستقبل؟

عبر تاريخ الفلسفة اجتاحت فلسفة الزمان نظرتان للزمان تمثلهما النزعتان الآتيتان: النزعة الأبدية eternalism التي ترى أن كل وجود في الزمان وجود واقعي (حاضر، ماضي مستقبل) ثم نزعة الحضور presentism التي ترى أنه لا وجود واقعي سوى للحاضر وأن هذه الرؤية هي الأقرب للصواب لاتفاقها مع رؤية الحس المشترك أو الإنسان العادي. إلا أن هذا لا يعني إنكار الماضي والمستقبل، ولكنه يعني أن الحاضر يتغير ولكنه لا يكون واقعيا إلا وهو حاضر. فمتى كنا في وقت الصيف كان الصيف واقعًا، ونحن الآن في الشتاء واقعيًا ولكنه سيتغير ولن يصبح واقعًا وهو في الماضي.

كذلك للحاضر خصائص تميزه ليست للماضي ولا للمستقبل. فإذا افترضنا أن حادثة حاضرة مصحوبة بالآم كألم في الأسنان أو الكلى مثلًا، فإذا لم توجد لم يوجد الألم. و إذا أردنا تذكرها من حيث كونها ماض، فلن يكون تذكرها كماض مصحوبًا بالألم نفسه أو تخيل حدوثها في المستقبل مصحوبًا بالألم. ولكن يظل تخيلها كمستقبل يقلقنا- وفي هذا ما يميز المستقبل عن الماضي- لعلمنا بارتباطها بالآلام. من هنا كان اهتمامنا بالمستقبل، للقلق الذي يصاحبه. من هنا كان انتباهي تحديدًا لهذه النزعة الفلسفية من حيث أن اهتمامها بالمستقبل مرجعه إلى الهم أو القلق الذي نتوجه به إليه.

مستقبل الفلسفة أم فلسفة المستقبل؟

هل نتحدث عن مستقبل الفلسفة أم فلسفة المستقبل؟

لا شك أن المصطلحين «مستقبل الفلسفة» و«فلسفة المستقبل» مصطلحان مختلفان و إن كان هناك ارتباط بينهما. فمستقبل الفلسفة لا حديث عنه إلا بافتراض أن هناك مستقبلًا، هذا المستقبل في حاجة لتحديد: القدرة على تصور المستقبل يتوقف على حدود المستقبل بمعنى أنه كلما كان المستقبل الذي نعنيه هو المستقبل القريب، كان تصوره أو تنظيره أسهل. فلننظر مثلا في التغيرات التي حدثت في الأربعين سنة الأخيرة نجد أنها فاقت كل قدرة على التصور رغم أنها تندرج ضمن الماضي القريب، فمابالك لو أردنا لتنظير مستقبل بعيد، هل سيمكننا التنظير له وتخيل الكيفية التي سيكون عليها؟ سيُعرّف علماء الدين ومفكروه «المستقبل»

بأنه ما يستمر في الحياة الآخرة. سيراه آخرون «المستقبل» بالمعنى الدنيوي. تحديد المستقبل يتوقف أيضًا على تصور سيرورة الوجود: هل الوجود ثابت أم يسير في ديمومة. وهل الديمومة هي ديمومة هنري برجسون الداخلية «تلك التي يدركها الوعي تختلط مع عملية دمج وقائع الوعي بعضها في البعض الآخر، ومع الإثراء المتسلسل للأنا» أم أنها «الزمان الذي يدركه الفلكي في صيغه، والزمان الذي تقسمه ساعاتنا إلى قطع متساوية.»(١)

أما فلسفة المستقبل، فيعني بها غالبًا فلسفة المستقبل بكل جوانبه، من حيث تجسده في عالم لا يمكننا الآن سوى أن نفترضه افتراضًا انطلاقًا من الحاضر. واقعيًا- انطلاقًا من الحس المشترك- لا وجود سوى للوجود الحاضر. أما الوجود الماضي والوجود المستقبلي فكلاهما وجود تصوري. كيف سيكون الحال في المستقبل؟

لا أعتقد أنه من الصواب - في حديثنا عن المستقبل- أن نتصور حال البشر بشكل منفصل عن كلية الوجود بما فيه من وجود حيوي وغير حيوي بل وفي انفصال حتى عن منتجات واكتشافات الإنسان أيضًا بعد ما ثبت أن الكل يتحرك تأثيرًا وتأثرًا بالتبادل. وبالتالي في تنظيرنا للمستقبل سنحتاج للتساؤل عن مستقبل البيئة، كيف سيكون. سنحتاج للتساؤل عما هي الاكتشافات والاختراعات التي بناء عليها ستتحدد الهيئة التي عليها مستقبل البشر وعلاقاتهم الاجتماعية بينهم وبين بعضهم وبينهم وبين غيرهم من الكائنات؟ هل يمكننا تحديد القيم التي ستكون لها الأولوية في علاقات البشر بعضهم ببعض؟ داخل المجتمع الواحد وبين المجتمعات؟ هل سيقتصر المستقبل على حياة فوق الأرض فقط؟ هل سيقتصر المستقبل على حياة وعلاقات بين الكائنات التي نعرفها حتى الآن فقط؟ ماذا لو اختفى كائن نتيجة رعونة بشرية أو وفقًا لعوامل الطبيعة والعلم نبهنا بضرورة المحافظة على التنوع البيئي، هل سيؤثر هذا في علاقات كائنات المستقبل بعضها ببعض؟

من هنا كانت الصلة بين فلسفة المستقبل ومستقبل الفلسفة، لأنه بتغير المستقبل تتغير الفلسفة الملائمة له. وهذا في تقديري دور الماوراء فلسفة التي تنعكس- بل ويجب أن تنعكس- باستمرار على الفلسفة لتتأكد أن الفلسفة الحالية الملائمة لعصر ما لازالت ملائمة أم أن التغييرات الحادثة فرضت تغييرات في الفلسفة. وما حجم أو طبيعة التغييرات.

(١) هنري برجسون «بحث في المعطيات المباشرة للوعي» ترجمة الحسين الزاوي، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ص ١٠٧

لنضرب مثالا بذلك أنه قبل ظهور وانتشار الديانة المسيحية كانت القوة الجسدية هي قيمة التميز في الدولة الرومانية وكانت الفلسفة نشاطًا إنسانيًا تأمليًا محضًا. بعد انتشار المسيحية والإسلام لم تعد هذه هي الفلسفة الملائمة. نعم ظلت الفلسفة نشاطًا إنسانيًا تأمليًا محضًا، ولكن تغير بالضرورة موضوع الفلسفة إلى التوحيد بين الفلسفة والدين أو تبرير العقائد الدينية تبريرًا فلسفيًا وأضحت المبادئ المطلوب نشرها هي مباديء الرحمة والعدالة والمساواة والإخاء.

على هذا النحو أعتقد أنه ستتغير الفلسفة موضوعًا واهتمامًا مع كل تغير يصيب الكون ومع كل علاقات جديدة تظهر في الكون سواء أكانت علاقات بين كائنات بيولوجية، أو بيولوجية غير بيولوجية أو بيولوجية بشرية. **من هنا كان دور الفيلسوف العربي أن يمارس باستمرار التفكير الماوراء فلسفي حتى يكون للفلسفة العربية دور فاعل، يناقش مشكلات العالم معلنًا عن حضوره وعن حلوله التي تتوافق مع ثقافته واحتياجاته ولا نفاجيء مثلما هو حادث الآن أننا نُدرس لأبنائنا ما قد يحتاجونه وما لا يحتاجونه من ثقافات أخرى لغياب غيرها ثم نكتفي بلعن مركزية الغرب.**

لنضرب بعض الأمثلة:

مما لا شك فيه أن الانتشار المتزايد للتكنولوجيات قد أثر في تغير صور العلاقات الاجتماعية بشكل متزايد مثل علاقات التعارف والحب والحميمية والزواج والصداقة، فهذه جميعها قد أصبحت في بعض الأحيان تحدث في الفضاء الالكتروني، وقد تبدأ وتنتهي هناك، أي في الفضاء الالكتروني، وقد تبدأ هناك ثم تقوي بصور تقليدية في الواقع المتجسد. **هنا تظهر أهمية صياغة فلسفة أخلاقية تراجع وتؤسس لقيم أخلاقية تلائمنا: قيم لا تتجاهل مثل هذه الصور من العلاقات التي أصبحت موجودة بيننا بالفعل، دون أن تتحول فلسفة الأخلاق إلى مجموعة من العظات الساذجة.**

كذلك فقد أثرت التكنولوجيات في القيم الفلسفية مثل قيمة الخصوصية. لقد أصبحت هناك شركات متخصصة تجمع وتحلل ما يكتبه المرء عبر قنوات التواصل الاجتماعي فتعرف قيمه وآماله وطموحاته ومخاوفه إلخ. كذلك يمكن معرفة مستواه الثقافي والاجتماعي إلخ. هذه الشركات تجمع ما أصبح يعرف بالبيانات الضخمة big data.

ليس هذا فقط، فلم تعد التكنولوجيا تؤثر فينا وحسب، بل لقد تغيرت المكانة الأنطولوجية لطرفي العلاقة التقليدية بين الذات الإنسانية العارفة والموضوع السلبي موضوع المعرفة. متى تفاعلت موضوعات المعرفة - المنتجات- فإنها تزيد من قدر إدراكاتنا للعالم من خلال منتجاتنا أنفسها، وبالتالي فلم تعد مجرد موضوعات للمعرفة، بل ساهمت هي ذاتها في التأثير في الذات الإنسانية برفعها لقدر إدراكات الذات.

العلم يتجه الآن نحو إثبات أن الإنسان لا إرادة حرة له. لنا أن نتخيل كم التغييرات التي يمكن أن تحدث إذا ما تم إثبات هذا. أول التغييرات التي ستحدث هو إلغاء القوانين والنظام القضائي، إذ كيف يمكنك أن تحاكم من لا إرادة له على فعل ليس له إرادة في إختيار فعله؟ في الغرب يقولون، لن يتغير شيئًا. لن نلغي النظام القضائي ولكننا فقط سنغير فهمنا و إدراكنا له: من إرادة مبرهن عليها كوجود أنطولوجي لها إلى مواضعة. سنقبل الإرادة كأمر متواضع عليه. **هنا يأتي دور الفيلسوف العربي المسلم والمسيحي ليشرح بأي معنى أن الثواب والعقاب قائمان على أساس حرية الإرادة لدى الإنسان؟**

وهكذا تتغير جوانب الحياة العضوية وغير العضوية في الكون كله لارتباطها ببعضها البعض في نسيج واحد وكذا الفلسفة والعلوم من حيث كونها تصورات لفهم الكون. وهكذا يظل حاضر يجذبنا إلى مستقبل يصبح حاضرًا لمستقبل آخر لتعبر هذه العلاقة عن حركة التاريخ.

ولكن من ذا الذي يحرك هذا التاريخ؟ هل هو الإنسان؟

إذا كان الإنسان هو محرك التاريخ من حيث كونه على رأس المنظومة البيولوجية، فلِمَ تغيره الكائنات الأخرى؟ بل ولم يتغير بمنتجاته الالكترونية، قيمًا وسلوكًا؟ **كيف يمكن التوفيق بين هذا التغيير الذي تحدثه الكائنات البيولوجية الأخرى ومنتجات الإنسان الالكترونية من ناحية والرؤية الدينية التي تضعه على رأس الكون؟ أي تميز يبقى للإنسان؟ وبأي معنى؟**

الأساس الأنطولوجي للوجود

مع الثورة الصناعية في القرن العشرين والاستهلاك غير الراشد للبيئة، ظهرت دعاوي ضرورة التوازن للحفاظ على التنوع البيئي والتوازن البيئي، وظهر مصطلح التنمية المستدامة

١٩٨٧ مـن أجـل الحفـاظ على البيئـة وعلى مسـتقبل الأجيال المسـتقبلة مما أدى إلى التشـكيك في مركزية الإنسان للكون ومناداة البعض بضرورة محافظة الإنسان على البيئة لأنه ليس سوى عنصر من عناصرها كما ارتأت الايكولوجيا العميقة مثلا.

عادت مكانة الإنسان في الكون لتثور وتهتز مرة أخرى من تأثره بالتكنولوجيات الرقمية وتحكمهـا أو تأثيرها في سـلوكياته وتغييرهـا لقيمه. صحيح أن هذا ليـس بجديد ولكنه يحدث مـع كل تطور تقـني، ولكن ظهور العـوالم الافتراضية أعادت فكرة العـوالم الممكنة القديمة إلى الظهور وأضحى التساؤل: هل العالم الافتراضي عالم واقعي؟ أسئلة يتنازع حولها الفلاسفة في العقـد الأخـير. David Chalmers (the Virtual and the Real 2016. فـإذا كان الإنسـان يتأثر بمنتجاته التكنولوجية، فهل مازال الإنسان هو سيد الكون؟ وبأي معنى؟

هل البحث عن سـيد للكون سـؤال صحيح؟ هل هكذا يجب أن نواجه المستقبل؟ أم ربما كان السؤال من هو سيد الكون هو السؤال الخطأ؟ هو توجه خطأ في التفكير؟ وإذا كان هذا هو السؤال الخطأ، فما هو السؤال الصواب؟

إذا كان هذا هو التحدي في نظري الذي ينتظر إنسان القرون المستقبلة، وفلسفة المستقبل، **فهو تحد أكبر لنا كعرب وكمسـلمين لارتباطه بشريعة قبلناها طائعين وستظل مسؤوليتنا قائمة في بيان أهليتها حتى يوم الدين.**

المراجع

هنري برجسـون «بحث في المعطيات المباشرة للوعي» ترجمة الحسـين الزاوي، مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٩.